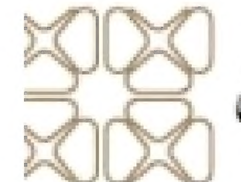
سنن الله في خلقه

محمد صالح المنجد









سنن اللّه في خلقه

محمّد صالح المنجّد

ساهم في إعداد هذا الكتاب
الفريق العلمي في مجموعة زاد
بإشراف الشيخ محمد صالح المنجد



©مجموعة زاد للنشر، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

سنن الله في خلقه. / محمد صالح المنجد. - الرياض، ١٤٣٧هـ

٧٢ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ١-٨١-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨

١. الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي: ٢١٣ ١٤٣٧/١٤٠٦

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٤٠٦

ردمك: ١-٨١-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ/٢٠١٦م

الناشر



المملكة العربية السعودية

الخبر - هاتف: ٨٦٥٥٣٥٥

جدة - هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

امتياز التوزيع



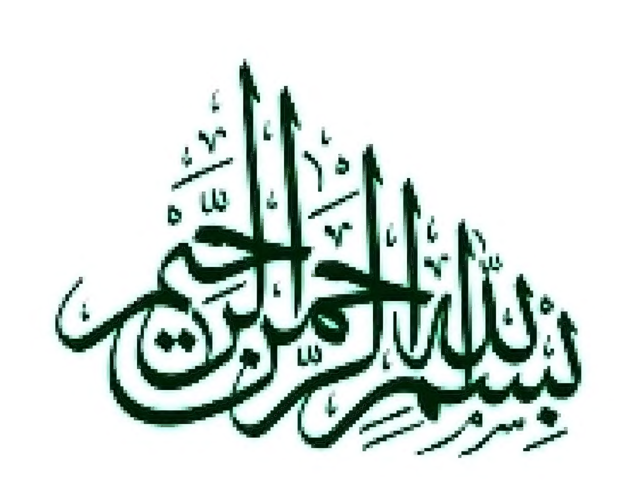
المملكة العربية السعودية - الرياض

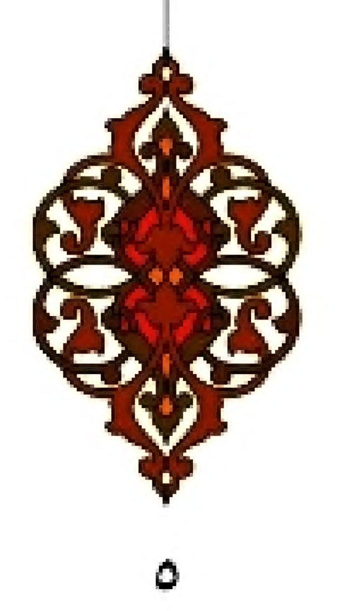
المحمدية - طريق الأمير تركي الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣

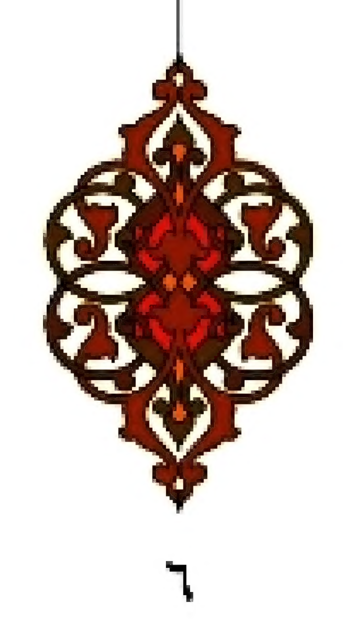
هاتف مجاني: ٩٢٠٠٢٠٢٠٧

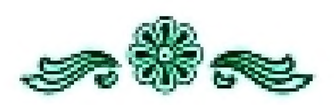
ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم

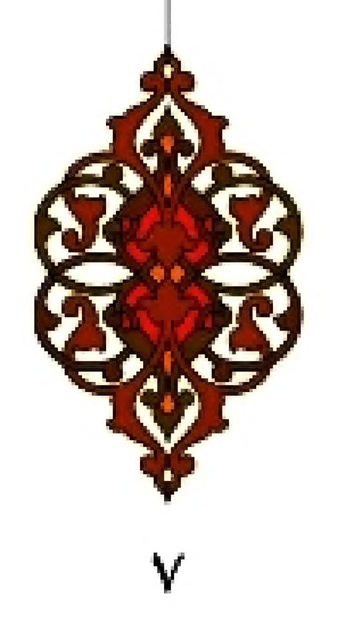


المحتويات









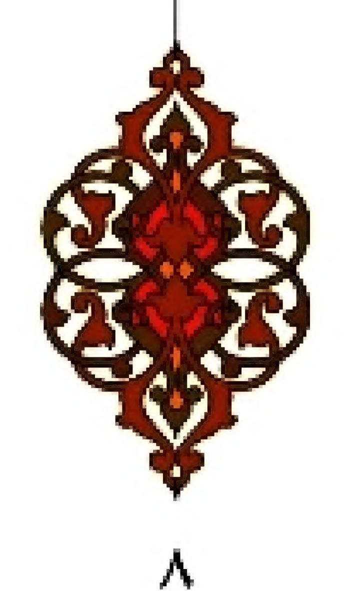
مُقـدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلا شك أن العاقلَ إذا نظر -حَولَه، ومِن خلفِه، وبينَ يَديه- في أحوالِ العالَم، وما وقع ويقعُ عبر الأيام والسنين من أحداثٍ متعاقبة، وأحوالٍ متغايرة، وكيف قامت دولٌ، وكيف هلكت أممٌ، وكيف أعزّ الله قوما، وأذلّ آخرين، وكيف أمْهل قوما، وعاجل آخرين بالعذاب، وكيف أنزلَ البلاءَ بأهل نقمته، ورفعه عن أهل عافيته: لا شك أنه يدرك أن ذلك قائم بمشيئته وقدرته، مدبَّر بعلمه وحكمته، مُصرَّف على هَدْي سُنّته.

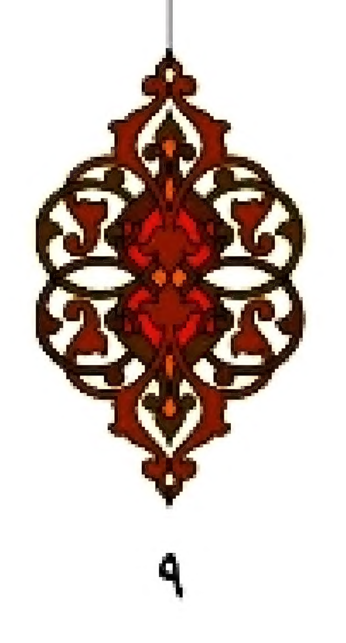
وفي هذه الصفحاتِ نكشف عن بعضِ معالِمِ هذه السننِ، وأحوالِ أهلِها، وكيف دام الخيرُ بأهلِ الصلاح والتقوى، وكيف استبدلَ الله مَن تولى قومًا غيرهم، هم أولى بالنعمة منهُم، وكيف أعزّ بالإيمان أهلَه، وأذلّ بالعصيان جَمعَه، واستدرج الغويَّ حتى بلغ حتفَه.



نسـأل الله أن يعصمَنا بِحولِه وقوتِـه، ويُعينَنا على طاعتِه بفضله ومِنّتِـه، ويختارَنا من جُملة أهل نِعمته، وأن يسـتعملَنا في نُصرة دينه، وإقامة شرعه، إنّه على كلّ شيء قَدير.







سنن الله في خلقه(١)

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨].

إن الله تعالى خلق الخلق، وقضى الأمر، وجعل سنناً ماضيةً في الكون والأفراد والشعوب، وفي الأقوام والأمم، سنناً جارية في عباده، وأوليائه، وأعدائه، وأرضه، وسمائه.

وهذه السنن هي التي تحكم البشرية والحياة على الأرض، وهي هي لا تختلف من زمان إلى زمان، ولا من مكان إلى مكان، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

---

(١) من المراجع المهمة في هذا الباب، والتي تم الاستفادة منها :

- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، للدكتور عبد الكريم زيدان.
- السنن الاجتماعية في القرآن، د. محمد أمحزون
- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور
- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، للدكتور شريف الخطيب.
- سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، حسن بن صالح الحميد.



فما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغداً، ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

وسنن الله: هي طرائقه في تدبير شؤون الكون، وتسيير أحوال الحياة، وإجراء القَدَرِ على عباده بما تقتضيه حكمتُه.

والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليها في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها[1].

وهي كثيرة ومتنوعة، فمنها:

سُنَّة المداولة: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وسنة التدافع: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة ٢٥١].

وسنة التغيير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ [الأنفال: ٥٣].

وسنة الحفظ: **«احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»**.

وسنة النصر: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم: ٤٧].

وسنة الابتلاء والتمحيص والتمييز: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١١٤).

يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ۝٣١﴾ [محمد: ٣١]، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وسنة الاستدراج والإملاء: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣]، ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وسنة الإهلاك للظالمين: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ۝٥٩﴾ [الكهف: ٥٩]، ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ [القصص: ٥٩].

وسنة بقاء الأصلح: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝١٧﴾ [الرعد: ١٧].

وسنة الاستبدال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ [محمد: ٣٨].

وسنة الله في الجزاء بجنس العمل: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٩﴾ [الصافات: ٣٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦].

وسنة التبعة الاجتماعية: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: ٢٥].



وغيرها من السنن كثير، كسنن الله في الأسباب والمسببات، وفي الهداية والإضلال.

ومن سمات هذه السنن الإلهية:

١. أنها عادلة: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: ١١٥]، فسنن الله تعالى حكيمةٌ عادلةٌ تُعطي كلَّ إنسان ما يستحِقُّ.

٢. أنها نافذة مُتحقِّقة: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨]، «فهو نافذ مفعول، لا يقف في وجهه شيء ولا أحد، وهو مقدَّر بحكمة، وخبرة، ووزن، منظور فيه إلى الغاية التي يريدها الله منه، ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها»[1].

فسنن الله مطردة لا تتخلف، كما قال شيخ الإسلام: «الرب تعالى في الحقيقة لا يَنقض عادته التي هي سنته... وهي التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين»[2].

٣. لا تتبدَّل: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢] أي: لا تتغيَّر.

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٧٠).

(٢) النبوات (١/ ١١).



٤. **لا تتحوَّل:** ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] أي: لا تتحوَّلُ عن مُستحِقِّها إلى غيره.



والتبديل والتحويل كلاهما بمعنى التغير، لكن التبديل: التغييرُ في أصل العقوبة بأن تُبدَّل عقوبة الظالمين -مثلًا- إلى إدخالهم الجنة، وتُبدَّل إثابة المؤمنين المُحسنين بالجنة إلى إدخالهم النارَ، فهذا لا يكون أبدًا؛ لأنه يتنافى مع عدل الله وحكمتِه.

وأما التحويل: فأن تكون العقوبة قد تقرَّر نزولها -مثلًا- على القرية الفُلانيَّة، فتنزِلُ العقوبة فعلًا، ولكن على قريةٍ أخرى[1].

٥. **أنها عامة ثابتة مطردة:** فهي تجري على الجميع دون استثناء، ودون محاباة أو تمييز، لا تقتصر على فرد دون آخر، ولا قوم دون قوم، فهي شاملة لكل البشر، ولكل الأمم تجري على المخلوقات جميعاً، إذا تحققت أسبابها تحققت نتائجها، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ [النساء: ١٢٣].

ولولا ثباتها واطرادها وعمومها لما كان لذكر قصص الأمم السابقة وطلب الاعتبار بما حل بهم معنى، ولكن لما كان ما

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٢٦/ ٢٤٧).

جرى لهم وعليهم يجري على غيرهم إذا فعلوا فعلهم، حسُن ذكر قصصهم وطلب الاعتبار والاتعاظ بها.



٦. أنها محايدة: من أخذ بها وعمل بأسبابها نال ما رتبه الله تعالى عليها من مسبَّبات ونتائج، ومن أهملها ولم يأخذ بها لم ينل شيئاً مما رتبه الله عليها من مسبَّبات ونتائج.

من فوائد العلم بالسنن الإلهية وفقهها:

١. التعرف على سنن الله في الكون والمجتمع يساعد على فهم الواقع.

فالتعرف على سنن الله عز وجل والإلمام بها، يساعد على تفسير الأحداث والمواقف والنوازل، لكونها تحدث بمقتضى هذه السنن التي لا تتبدل ولا تتحول.

فلا نستطيع أن نفهم التاريخ ونحلل الأحداث إلا بفهم السنن الإلهية، فمن خلال السنن الإلهية نفهم التاريخ، ونفسر أحداثه تفسيرا شرعياً سليماً ينفعنا في تقييم حاضرنا وتوقع مستقبلنا، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١].

فأحداث التاريخ تتكرر وتتشابه إلى حد كبير؛ لأن وراءها سنناً ثابتة تحركها وتكيفها، وهو ما عناه العرب بقولهم: «ما أشبه الليلة بالبارحة»، وعبر عنه الغربيون بقولهم: «التاريخ يعيد نفسه»، وأفصح عنه القرآن في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].





٢. إدراك العبد أن الله يمهل ولا يهمل. كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [ابراهيم: ٤٢-٤٣].

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، **ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

٣. تثبيت قلوب المؤمنين والثقة بوعد الله.

أكثر ما يذكر الله تعالى السنن في كتابة يذكرها في معرض تثبيت المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود: ١٢٠-١٢٣].

فالسنن الإلهية بأنواعها من أكبر وسائل ثبات وصمود أهل الحق في وجه الباطل وأهله، كما أن تأمل هذه السنن ومراجعتها يقضي على الهزيمة النفسية والتشاؤم واليأس من الإصلاح من قلوب المؤمنين.

٤. الأخذ بالأسباب، وربط الأسباب بالمُسبَّبات، مع التوكُّل

---

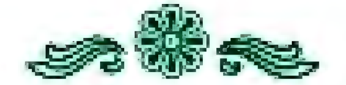
(١) رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) عن أبي موسى رضي الله عنه.

على الله، فلقد سيَّر الله عز وجل الكون على نواميسَ ثابتةٍ، وقوانين مُنتظِمةٍ، قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

فالمُسلمُ العاقلُ إذا أراد النجاحَ فعليه أن يتتبَّعَ الأسبابَ التي جعلها الله في الكون، كما فعل ذو القرنين، فنجح كُلَّ النجاح: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٤-٨٥].

«أي: أعطاه الله من الأسباب المُوَصِّلة له لما وصل إليه ما به يستعين على قهر البلدان، وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها على وجهها، فليس كلُّ من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادرًا على السبب، فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقيِّ، والعمل به حصل المقصود، وإن عُدِما أو أحدهما لم يحصل»[1].

وسنتكلم بإيجاز فيما يلي عن بعض السنن الإلهية في الحياة، وهي: «سنة التدافع»، «وسنة المداولة»، «وسنة الاستخلاف والتمكين»، «وسنة التغيير»، «وسنة إهلاك الظالمين».



(١) تفسير السعدي (ص٤٨٥).





سنة التدافع

المراد بها: الصراع والقتال بين الناس، بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين أمة وأمة.

فسنة الصراع بين البشر سنة إلهية ثابتة منذ أن خلق الله البشر، ولا تزال مستمرة إلى قيام الساعة.

قال ابن خلدون: «اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة، لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله.. وهو أمر طبيعي في البشر، لا تخلو عنه أمة ولا جيل»[1].

فما يحلم به البعض من وصول البشرية لمرحلة السلام العالمي الدائم الذي لا عداء فيه ولا كراهية: وهمٌ لا حقيقة له، وإنما يريدون نشره بين السذج لكيلا يأخذوا العدة للقدر الواقع لا محالة.

وقد دل على هذه السنة الإلهية قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

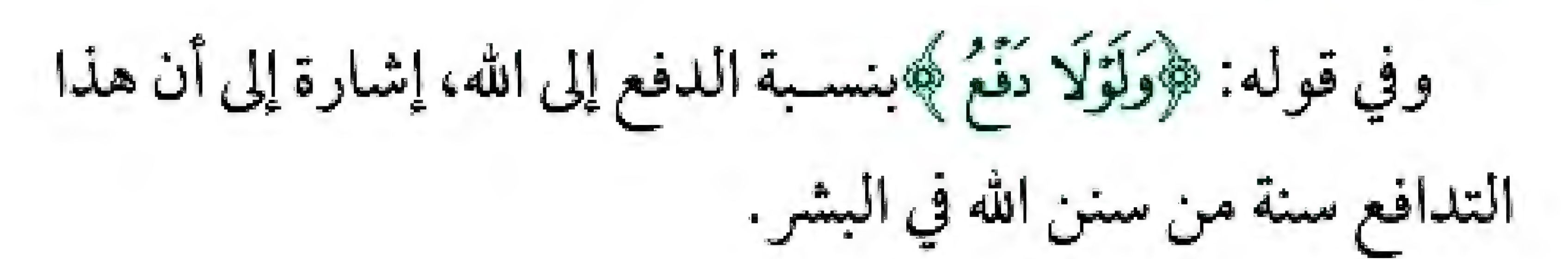
---

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ١٤٥.



يدفع أهل الكفر بأهل الإيمان، ويدفع أهل الشرك بأهل التوحيد، ويدفع أهل البدعة بأهل السنة، ويدفع أهل الباطل بأهل الحق، ويدفع أهل البغي والجور والشرور والآثام بأهل الإصلاح والخير.

ولـولا هذه المدافعة لغلب أهل الفسـاد وبغـوا على الصالحين، وأوقعوا بهم وصار لهم السلطان في الأرض، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٤٠].



وفي قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾ بنسبة الدفع إلى الله، إشارة إلى أن هذا التدافع سنة من سنن الله في البشر.

وقد بين الله في هذه الآيات الحكمة من هذه السنة، وهي: «حفظ الدين من الانهيار، وحفظ الدنيا من الفساد».

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾

فلولا هذا التدافع، لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا فيها حتى تفسد الأرض بفسادهم حتى تبطل منافعها وتتعطل مصالحها.

حتـى إن أماكـن العبادة مـن الصوامـع (وهي المعابـد الصغار للرهبان)، والبيـع (أماكن عبادة النصـارى)، والصلوات (كنائس اليهود)، والمساجد، على قداستها وتخصيصها للعبادة لن تسلم من أذاهم[١].

---

(١) وذلـك لأنها أنشـئت لعبادة الله، ولهذا لم يذكر بيـوت الأصنام وبيوت النار، والممدوح من هذه المعابد ما كان مبنياً قبل النسخ والتبديل، أما بعد النسخ=

ولذلك ختم الله عز وجل هذه الآية بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، حيث لم يجعل الباطل وأهله ينفردون بالناس، بل قيض الله له الحق وأهله يدمغونه حتى يزهق.



الصور الواقعة للتدافع:

هذا التدافع قد يكون بين أهل الحق وأهل الباطل: كالذي حصل في معركة بدر ضد الوثنية، وفي واقعة الأحزاب ضد اليهود والمشركين، وفي اليرموك ضد الصليبية الرومان، وفي القادسية ضد مجوسيّة فارس، وفي حطين أمام الحملات الصليبية، وفي عين جالوت أمام غزو المغول الوثنيين الذين اجتاحوا العراق وسوريا وقتلوا في بغداد وما حولها ما يقرب من مليون مسلم، كما ذكرت كتب التاريخ.

وقد يكون التدافع بين أهل الباطل أنفسهم، تنافساً على الدنيا، وحبا للمُلك والسلطان، وبسطاً للسيطرة والنفوذ.

فمن حكمة الله أنه إذا قامت دولة وأرادت الإفساد في الأرض واستذلال الشعوب، أقام الله أمامها دولة أخرى في قوتها تنازعها وتقاتلها، فتصدها وتدفع الشر عن الناس، فالله يسلط الظالمين بعضهم على بعض، أو يسلط المؤمنين على الظالمين حتى لا تفسد الأرض.

= بالدين الخاتم فقد أصبحت معابد مخالفة لما أراد الله، وذلك كما أثنى على اليهود والنصارى الذين كانوا قبل النسخ والتبديل يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحاً.



* فقديما كان الصراع محتدما بين الإغريق والفرس.

* ثم بين الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الرومانية (الفرس والروم).

وفي العصر الحديث، لما قويت انكلترا قوى الله ألمانيا لترهبها وتدفعها، ولما قويت أمريكا، أقام الله روسيا أمامها تدافعها وتنازعها، ليستقيم ميزان القوى العالمية، وحتى لا يعم الطغيان والفساد الأرض كلها، بحيث لا يترك المجال لقوة واحدة في العالم لتسيطر على باقي الدول، وتهيمن على خيرات الأمم الأخرى.

قال ابن كثير: «لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشفُ شَرّ أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف»[١].

فلو ترك الله القوي من البشر يأكلُ الضعيفَ، ولم يُعْطِ الضعيفَ وسائلَ الدفاع أو إرادةَ الدفاع لهلك الضعيفُ على يد القويِّ، ثم هلك القويُّ على يد الأقوى، ثم هلك الأقوى؛ لافتقاره لمن حوله وقد هلكوا، وهكذا تفسد الأرض كلُّها.

والنوع الأول من التدافع يكشف عن حقيقة العداء المستمر بين المؤمنين والكافرين، بين أهل الحق وأهل الباطل.

فالصراع بينهما قائم منذ أن خلق الله الإنسان: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾ [البقرة: ٣٦].

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣٥).

فآدم وذريته أعداء لإبليس وذريته وأتباعه، وكذا العكس.



ولن تنتهي هذه المعركة إلا قرب قيام الساعة وظهور الدجال حيث تكون الملحمة الأخيرة مع الروم كما بين النبي صلَّى الله عليه وسلَّم في أحاديث كثيرة.

فالصراع بين الخير (الإسلام) والشرِّ (الكفر) صراعٌ مُستمِرٌّ لا ينتهي حتى يقاتل آخر هذه الأمة الدجال وينزل عيسى عليه السلام فيقتل الدجال عند باب لُدٍّ في أرض الشام كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

واستمرار هذا الصراع مقطوع به بنص كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

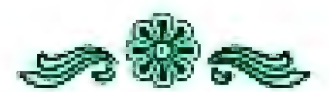
فأهل الباطل لن يتركونا إلا إن تركنا ديننا كليةً، وعدنا إلى ملة الباطل بعد إذ نجانا الله منها، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

فأنشودة التعايش السلمي مع أهل الباطل أنشودة وهْمٍ كاذب، كلماتٌ ظاهرها حق يراد منها الباطل، واستغفال السُّذَّج.

والتدافع بين أهل الإيمان والكفر لا يقتصر على جانب الاقتتال فقط، بل الصراع بينهم في كافة شؤون الحياة، فقد يكون قتالياً وقد يكون فكرياً وعقائدياً، ولذلك هناك المدافعة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والإعلامية.



قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله تعـالى: «والجهاد منه: ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب، والدعوة، والحجة، واللسان، والرأي والتدبير، والصناعة، فيجب بغاية ما يمكنه»[1].



(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٥٣٨).



سنة المداولة

بعد المدافعة بين أهل الحق والباطل، أو بين أهل الباطل مع بعضهم، تكون سنة المداولة، بحيث تكون الغلبة دُولاً بينهم.

فتكون الغلبة لهؤلاء أحياناً، ولهؤلاء أحياناً، كما قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].

فهذه الدار يعطي الله تعالى منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الأيام بين الناس، يومٌ لهذه الطائفة، ويومٌ للطائفة الأخرى؛ بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

وجرت سنة الله في رسله وأتباعهم أن تكون الحرب سجالاً بينهم وبين أعدائهم، فيدالوا مرة، ويُدال عليهم أخرى.

قال ابن القيم: «إن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه، وغلبته له، وأذاه له في بعض الأحيان، أمرٌ لازمٌ لابد منه، وهو



كالحر الشديد، والبرد الشديد، والأمراض، والهموم، والغموم، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار»[1].

وهذه السنة تُبطل ما يروج له البعض من نظرية (نهاية التاريخ) كما زعم المفكر الأمريكي «فوكوياما» في كتابه المعنون بذلك، ومؤدى نظريته: أنه بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، وانتصار الديموقراطيَة الغربيَة، لم يعد أمامَ العالَم ما ينتظرونه من جديد، فلا شيء سيعقب هذا الانتصار والظهور!!.

إن علو أمريكا وحلفائها من قوى الشر والطغيان؛ إنما هو دورة من دورات الزمن، وإن الزمن لن يقف عند هذا الحد، وإن التاريخ لن ينتهي بهذا المشهد، بل ستستمر دورات ودورات تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وكما قال الشاعر:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان

شواهد المداولة بين الأمم:

* إدالة الفرس على الروم، فقد كانت كفة الفرس هي الراجحة فترة من الزمان، ثم كانت الإدالة للروم على الفرس، وقد أشار القرآن لهذه الحروب الدائرة بينهم، فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم: ١-٣].

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٨٩).



قال الزبير بن عبد الله الكلابي: «رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم، كل ذلك في خمس عشرة سنة»[1].

* في غزوة بدر كانت الإدالة للمسلمين على الكفار، وفي أحد أدال الله المشركين على المسلمين.

* وقد أدال الله المسلمين على النصارى في الأندلس، وقامت لهم دولة هناك استمرت ثمانية قرون، ثم كانت الإدالة للنصارى على المسلمين لما تركوا شرع الله.

فيوم لنا، ويوم علينا ... ويوم نساء ويوم نسر

من أسباب المداولة بين الأمم:

وهذه المداولة بين الأمم والدول أو لفريق على آخر، لا تكون جزافاً وخبط عشواء، وإنما تكون لِحِكم إلهية عظيمة، ووفق قوانين وسنن، من أخذ بها كانت له الغلبة.

فمن أسباب إدالة الكافرين على المؤمنين: الجبن، وضعف الروح والهمة، والتنازع بين المسلمين، والمعاصي، والتكالُب على الدنيا.

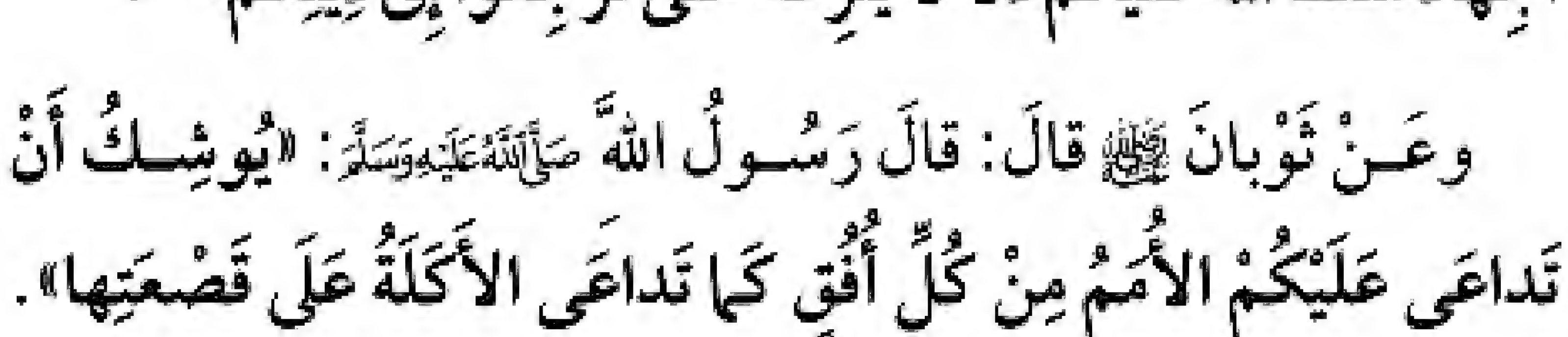
وقد بين سبحانه وتعالى بعض هذه الأسباب من خلال ذِكْره أسبابَ هزيمة المسلمين في غزوة أحد، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال:

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٠٩)



﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وعَنْ عبد الله بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:



«إذا تَبايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الجِهادَ سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلًّا لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»(١).

وعَـنْ ثَوْبانَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُـولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِـكُ أَنْ تَداعَى عَلَيْكُمْ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَما تَداعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِها».

قُلْنا: يا رَسُولَ اللهَّ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنا يَوْمَئِذٍ؟

قالَ: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثاءً كَغُثاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ المَهابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الوَهْنَ».

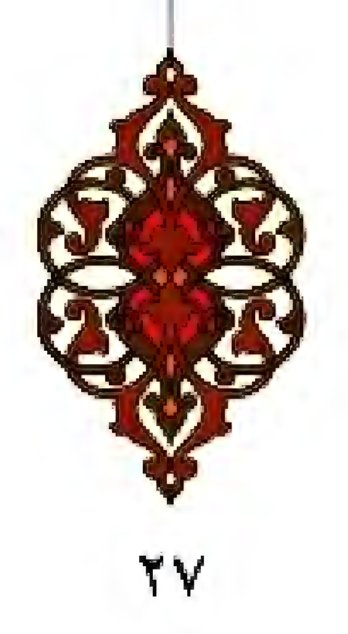
قُلْنا: وَما الوَهْنُ؟

قالَ: «حُبُّ الحَياةِ، وَكَراهِيَةُ المَوْتِ»(٢).



(١) رواه أبو داود (٣٤٦٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١١).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٨).



سنة الاستخلاف والتمكين

وبعـد أن تتم المدافعة بين الناس، وتكـون الأمور بينهم دولاً، تكون العاقبة للمؤمنين، باستخلافهم في الأرض.

ومعنى الاسـتخلاف: النصر والتمكـين للمؤمنين في الأرض، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

فهذا وعـد من الله لكل من قام بالإيـمان والعمل الصالح من هـذه الأمـة أن يسـتخلفهم في الأرض، ويجعلهـم المُتصرِّفـين في تدبيرها.

ولا يزال هذا الأمرُ إلى قيام الساعةِ، كلما قاموا بالإيمان والعمل الصالـح، حقق الله لهم مـا وعدَهم به، وإنما يُسـلِّطُ عليهم الكفارَ والمنافقـين، ويُديلُهـم عليهـم في بعـض الأحيان؛ بسـبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.



وإن وصـول الأمـة الإسـلامية في هذا الزمـان إلى التمكين ليس بالأمر السـهل، ولكنه كذلك ليس بالأمر المسـتحيل، إذ على الرغم من التضييق الشـديد والحرب الضروس التي تشـن على الإسـلام والمسلمين، فإن كثيرًا من المسلمين يرون أن التمكين لدين الله قاب قوسين أو أدنى من ذلك.

والمسلم واثق بوعد الله أن الأرض يرثها عباده الصالحون، وهذا ليس من باب الأحلام والتمنيات، ولكن من باب الثقة في الله تعالى، واليقين بوعده[1].

فدولـة الباطـل سـاعة، ودولة الحـق إلى قيام السـاعة، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

فسـبقت كلمـة الله التـي لا مـرد لهـا لعباده المرسـلين وجنـده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم، نصراً عزيزاً، يتمكنون فيه من إقامة دينهم.

وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله: أنه غالب منصور.

فالنـصر الـذي وصفه الله تعـالى بأنه منـه سـبحانه لا يكون إلا لمـن نـصر دينـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

---

(١) مستفاد من كتاب «فقه النصر والتمكين» للصلابي.



وقـال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فكل هيمنـة للشرك والكفر تتلوها بإذن الله تعالى جولة ظافرة للإسلام وللمتقين.

قال القرطبـي: «﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ قيل: هذا في الحـرب تكون مرة للمؤمنين لينـصر الله دينه، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون؛ ليبتليهم وليمحص ذنوبهم، فأما إذا لم يعصوا، فإن حزب الله هم الغالبون»(١).

قال الزجاج: «ومعنى نداولها: أي نجعل الدولة في وقت للكفار على المؤمنين إذا عصى المؤمنون، فأما إذا أطاعوا فهم منصورون»(٢).

وفي حديث هرقل حين قال لأبي سـفيان: «سَـأَلْتُكَ كَيْفَ كان قِتالُكُمْ إِيّاهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّ الحَرْبَ سِـجالٌ وَدُوَلٌ، فَكَذَلِكَ الرُّسُـلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لهم العاقِبَةُ»(٣).

شروط تحقُّق التمكين والاستخلاف:

أشـار القـرآن الكريـم بـكل وضـوح إلى شروط التمكـين، ولـوازم الاسـتمرار فيه، فقـال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ١٢٨).

(٢) زاد المسير (١/ ٤٦٦).

(٣) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٥-٥٦].



وهذه الشروط هي:

١. **الإيمان بالله** بكل معانيه وبكل أركانه، **والقيام بالعمل الصالح**، بكل أنواعه، والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢. **إخلاص التوحيد وتحقيق العبودية الشاملة لله:** ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾، والعبادة: اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

وإن من أسباب ضياع الأمة وضعفها، وانهزامها أمام أعدائها عدم تحقيق العبودية لله بمفهومها الشامل الصحيح.

٣. ومن شروط التمكين المهمة: **محاربة الشرك بجميع أشكاله وأنواعه؛** ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾.

وإنّ تفشي الشرك في المجتمعات الإسلامية سبب في ضياعها وانحرافها عن هدى المولى عز وجل، فمن أعظم الظلم، وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لرب العالمين وتسوية المخلوق مع الخلاق العليم.





٤. الصبر: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

٥. تقوى الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

فتقوى الله لها ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة، وهذه الثمرات تظهر على الأفراد، ومن ثمَّ على المجتمع المسلم الذي يسعى لتحكيم شرع الله والتمكين لدينه.

ومن شواهد التمكين في الأرض:

- **التمكين ليوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوصف: ٥٦].
- **التمكين لبني إسرائيل**: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧].
- **التمكين لداود وسليمان** عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: وقد كان بَدْءُ هذا التمكين بعد المدافعة التي حصلت بين جيش طالوت

وجالوت وجنوده، ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فوصل بنو إسرائيل إلى قمة مجدهم وعزهم.



ثم كان التمكين من بعده لابنه نبي الله سليمان، فقد مكن الله له من الملك والدولة، وأعطاه من النعائم ومظاهر الملك والعز والسلطان بحيث لا ينبغي لأحد من بعده أن يصل إلى ما وصل إليه.

- **التمكين لذي القرنين:** ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٤]، أي: أمده بكل ما أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه.

- **التمكين للنبي ﷺ وأصحابه من بعده،** فلقد كان لصدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح ما يؤهلهم للسيادة والقيادة، فمكَّنَهم الله من البلاد والعباد، وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام زماناً.

وقد بشرنا نبينا محمد ﷺ بأن العاقبة والتمكين سيكون لهذا الدين.

كما في قوله ﷺ: «بَشِّرْ هَـٰذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّناءِ، والرِّفْعَةِ، والدِّينِ، والنَّصْرِ، والتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ»[1].

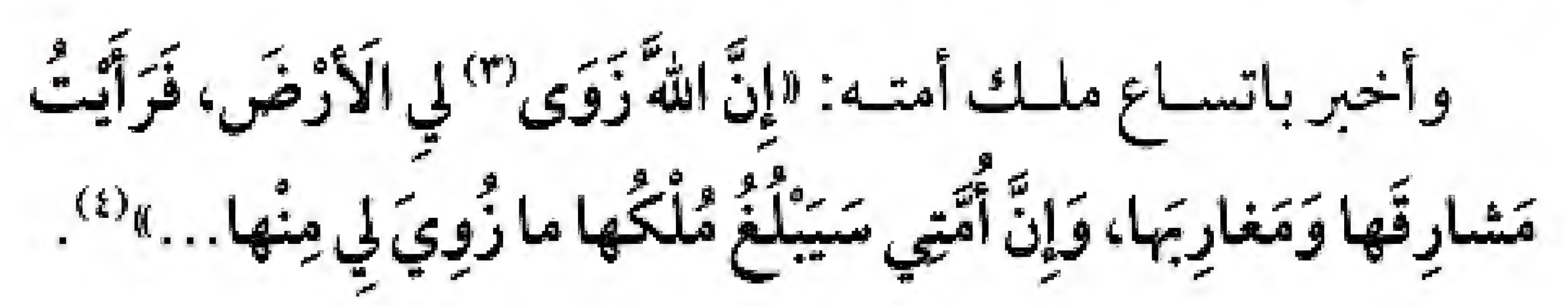
---

(١) رواه أحمد (٢٠٧١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٢٥).

وأقسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك: «... واللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخافُ إِلّا اللهَ...»[1].



وقال: «لَيَبْلُغَنَّ هَذا الأَمْرُ ما بَلَغَ اللَّيْلُ والنَّهارُ، وَلا يَتْرُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلّا أَدْخَلَهُ الله هَذا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ الله بِهِ الإِسْلامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ الله بِهِ الكُفْرَ»[2].



وأخبر باتساع ملك أمته: «إِنَّ اللهَ زَوَى[3] لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشارِقَها وَمَغارِبَها، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لِي مِنْها...»[4].

وبشرنا بانتصارات خاصة تدل على أن الأمة تعيش حالة من النصرة العامة، كفتح روما بعد فتح القسطنطينية.

سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ المَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟

فَقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا -يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ-»[5].

ولا بد أن ندرك أن التمكين والاستخلاف في الأرض ليس غايةً بحد ذاته، بل الغاية من الاستخلاف والتمكين في الأرض هي القيام بواجب العبودية لله، وعمارة الأرض وفق منهج الله.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) رواه أحمد (١٦٥٠٩) وصححه الألباني في الصحيحة (٣).

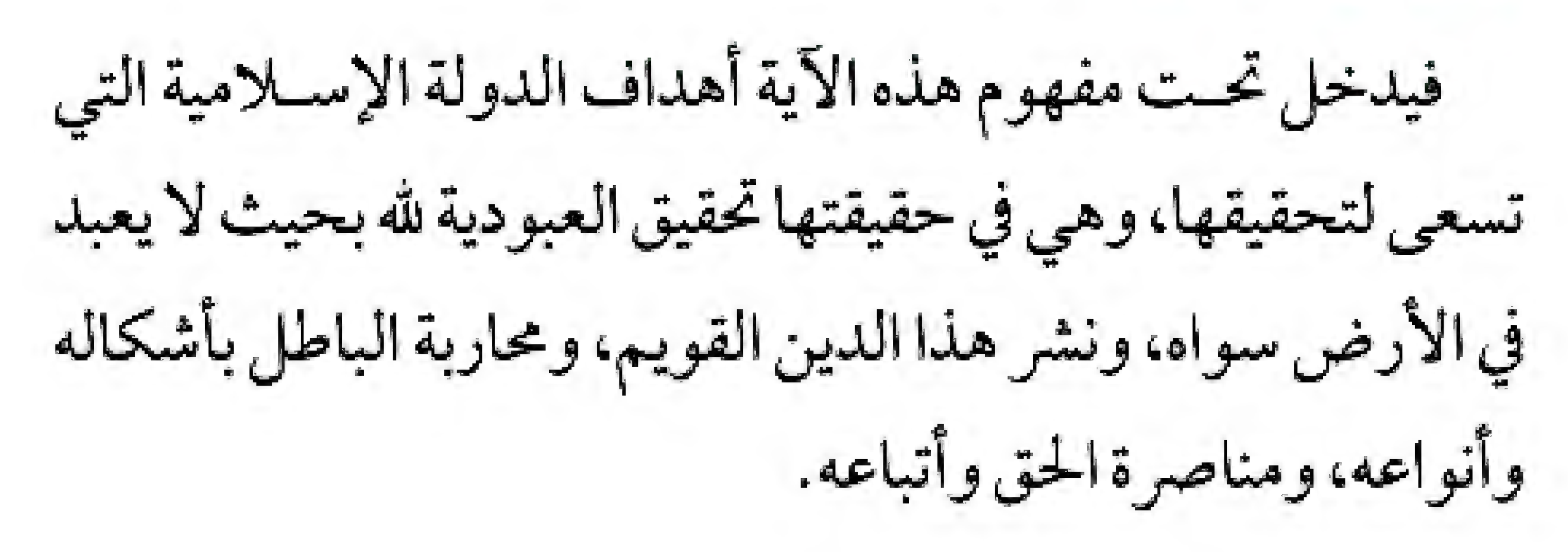
(٣) يعني: ضم وجمع.

(٤) رواه مسلم (٢٨٨٩).

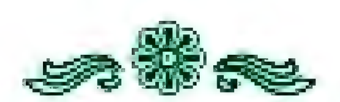
(٥) رواه أحمد (٦٦٠٧) وصححه الألباني في الصحيحة (٤).



وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أهداف التمكين في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [الحج: ٤١].



فيدخل تحت مفهوم هذه الآية أهداف الدولة الإسلامية التي تسعى لتحقيقها، وهي في حقيقتها تحقيق العبودية لله بحيث لا يعبد في الأرض سواه، ونشر هذا الدين القويم، ومحاربة الباطل بأشكاله وأنواعه، ومناصرة الحق وأتباعه.







سنة الله في التغيير

فمن سنن الله في المجتمعات والأمم، وفي الحياة عموماً: (سنة التغيير).

والمراد بها: أن الله يغير حال المجتمعات والأمم من حال إلى حال، وفق قوانين، وسنن إلهية ثابتة.

والتغيير سنة عامة في الكون والمخلوقات، فهو واقعٌ ملموسٌ فينا نحن البشر وفيما حولنا، لا يستطيع أحدٌ أن يُنْكِرَهُ.

ما بين قوة وضعف: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

وما بين عز وذُلٍّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

وما بين غنًى وفقر: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الروم: ٣٧].

إلى غير ذلك من صُوَرِ التغيير في حال الأفراد.

وكذلك في المجتمعات والأمم:



فتغير أحوال المجتمعات والأمم من حال إلى حال، ظاهرةٌ مشاهدة يشهد لها التاريخ، ويشهد لها الواقع الذي نعيشه، فالمجتمعات لا تبقى على حال واحدة، بل دائمة التغير من حال إلى حال.

فكم من أمة كانت في نعيم وسعادة ورخاء وتقدم ونصر وتمكين وغنى، ثم تغير حالها فأصبحت في حرمان وشقاء وشدة وتأخر وضعف وهزيمة وغزو من الأعداء وفقر.

وكم من أمة كانت شقية وضعيفة ومهزومة، فأصبحت سعيدة قوية منتصرة.

إلا أن هذا التغيير في المجتمعات والأمم، لا يكون خبط عشواء، وإنما يسير وفق سنة إلهية تحكمه وتضبطه.

وقد أبان الله عن هذه السنة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]، فهي سنة ثابتة لا تتخلف، على أساسها ترتفع المجتمعات وتنخفض، وتعلو الأمم وتسفُل، وتحل النعم والنقم، وعلى أساسها تتغير المكانة والمهانة، وعلى أساسها تتغير الحضارات ازدهارا وانحطاطاً، قوةً وضعفًا، غنى وفقرًا، صحةً وسقماً، وعلى أساسها يحل العز والذل، وعلى أساسها يعاقب الله ويكافئ.





فهذه الآية تعطي قانوناً ثابتاً مفاده: أن الله لن يغير حال قوم، إلا إذا غير هؤلاء القوم ما في نفوسهم، فهو قانون ثابت، لا يتخلف، ولا يحابي، ولا يظلم.

فإنه لا يغير نعمةً أو بؤساً، ولا يغير عزةً أو ذلةً، ولا يغير مكانةً أو مهانةً... إلا أن يغير الناس من عقائدهم وأعمالهم ومشاعرهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم.

فحدوث التغيير من الله مترتب على حدوثه من البشر سواء في السلب أو الإيجاب، فكل تغيير من البشر يقابله تغيير من الله، إن حسناً فحسن، وإن سوءاً فسوء.

فالآية ذكرت تغييرين: تغيير يحدثه الله تعالى، وآخر يحدثه الناس.

فمجال التغيير الذي يحدثه الله عز وجل هو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، والتغيير الذي أسنده سبحانه إلى القوم مجاله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

«وهو تكريم لبني البشر: حيث جعل اللهُ التغييرَ القدريَّ في حياة الناس مبنيًا على التغيير الواقعيِّ في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم»[1].

وهذه السنة عامة في البشر جميعًا، وليست خاصة بأمة معينة، أو

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٧٢٤) باختصار.

قـوم بأعيانهم، فالله يعامل جميع الأمم وفق هذه السـنة، فإذا غيرت الأمة ما بنفسها غير الله ما بها.



فكلمة (قوم) نكرة، فتعم أي قوم كانوا، وعلى أي توجه كانوا. والإطـلاق في الآية يجعـل مداها شـاملاً لجميع النـاس والبيئات والطبقـات والملـل والنحل والحـالات الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية.

وهي سنة جماعية وليست فردية، فكلمة (قوم) تعني الجماعة التي يطلق عليها أمة أو مجتمع.

فالتغيير سـنة اجتماعية لا فرديـة، وتغيير ما بالمجتمع يكون على أسـاس العمـل الجماعـي؛ «**إِنَّ النّـاس إِذا رَأَوْا الْمُنْكَر فَلَـمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللهُ بِعِقابِه**»[1].

ولا يعنـي هـذا أن التغيـير لا يحصل إلا إذا غير جميـع القوم ما بأنفسهم، بل قد يغير حال قوم إذا تغير بعضهم.

قال القرطبي: «أخبر تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقـع منهم تغيـير، إما منهم، أو مـن النّاظر لهـم[2]، أو ممن هو منهم بسبب، كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهـم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة.

فليـس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحـد عقوبة إلا بأن يتقدم منه

(١) رواه أحمد (١) وابن ماجه (٣٩٩٥) وصححه أحمد شاكر، والألباني.

(٢) أي القائم على شؤونهم.



ذنـب، بل قد تنزل المصائب بذنـوب الغير، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد سئل أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»[1].



أنواع التغيير:

النوع الأول: التغيير من الحسـن إلى السـيئ، أو من السـيئ إلى الأسوأ.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

قال الطبري: «إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ مِنْ عافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ، فَيُزِيلُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُهْلِكَهُمْ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ ذَلِكَ بِظُلْمِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، واعْتِداءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، فَتَحِلَّ بِهِمْ حِينَئِذٍ عُقُوبَتُهُ وَتَغْيِيرُهُ»[2].

وقد يكون سبب هذا التغيير:

١. الكفـر بنعـم الله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

وقـال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٩٤)، والحديث رواه البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٤٧١).

[القصص: ٥٨]، أي: «وكم أهلكنا من أهل قريةٍ كانوا في دعةٍ ورخاءٍ، فوقع منهم البطر، فأُهلكوا»[1].

و«البَطرُ: الطُّغيانُ عند النِّعمة»[2].



٢. أو الظلم والبغي: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ٥٩]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء: ١١].

فإذا اختلت الموازين، وانعدمت القيم، وتحكم الأقوياء في الضعفاء، فقد آذنهم الله بالهلاك.

٣. أو التمرد على أوامر الوحي: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: ٨-٩].

٤. أو اقتراف الذنوب والمعاصي: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٠٨).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٠٨).



وقال ﷺ: «يا مَعْشَرَ المُهاجِرِينَ خَمْسٌ إذا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، -وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ-: لَمْ تَظْهَرْ الفاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِها إِلّا فَشا فِيهِمْ الطّاعُونُ والأَوْجاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا المِكْيالَ والمِيزانَ إِلّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ المَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكاةَ أَمْوالِهِمْ إِلّا مُنِعُوا القَطْرَ مِنْ السَّماءِ، وَلَوْلا البَهائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ ما فِي أَيْدِيهِمْ. وَما لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمّا أَنْزَلَ اللهُ؛ إِلّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(١).

فالتحول من الطاعات إلى المعاصي من أسباب التغيير، فـ «لَيْسَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ وَلا أَهْلِ بَيْتٍ يَكُونُونَ عَلَى طاعَةِ اللهِ، فَيَتَحَوَّلُونَ مِنْها إِلَى مَعْصِيَةِ اللهِ، إِلّا تَحَوَّلَ لَهُمْ مِمّا يُحِبُّونَ إِلَى ما يَكْرَهُونَ»(٢).

٥. ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وقال ﷺ: «ما مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩) وصححه الألباني.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٠).

بِالمَعاصِي، يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلا يُغَيِّرُوا، إِلّا أَصابَهُمُ اللهُ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا»[1].



قال بِلالُ بْنُ سَعْدٍ: «إِنَّ المَعْصِيَةَ إِذا أُخْفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ إِلّا صاحِبَها، وَإِذا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُغَيَّرْ، ضَرَّتِ العامَّةَ»[2].

قالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يُعَذِّبُ العامَّةَ بِذَنْبِ الخاصَّةِ، فَإِذا المَعاصِي ظَهَرَتْ فَلَمْ تُغَيَّرْ أُخِذَتِ العامَّةُ والخاصَّةُ»[3].

٦. الرضا بالدنيا والتنافس عليها: «إِذا تَبايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[4].

ففي هذا الحديث بيان أن إزالة هذا التغير لا يكون إلا بالرجوع إلى الدين.

وفي الحديث: «واللهِ لا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخَشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيا كَما بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنافَسُوها كَما تَنافَسُوها، وَتُهْلِكَكُمْ كَما أَهْلَكَتْهُمْ»[5].

وقد كان حب الدنيا والركون إليها أهم سبب في تغيير حال حضارة المسلمين في الأندلس التي استمرت نحو ثمانية قرون، حتى

---

(١) رواه أبو داود (٣٧٧٦) وحسنه الألباني.

(٢) حلية الأولياء (٥/ ٢٢٢).

(٣) مسند الحميدي (١/ ٢٩٥).

(٤) رواه أبو داود (٣٠٠٣)، وصححه الألباني.

(٥) رواه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

أصاب المسلمين داء الأمم من الترف والركون إلى الدنيا والانشغال بالخلاعة والمجون، والاسترسال في الشهوات.



فتغيرت أحوالهم من حسن إلى سيء، وانقض عليهم النصارى واستباحوا ديارهم.

قال ابن حزم: «اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سبباً إلى انقراض أعمارهم، وعوناً لأعدائهم عليهم، وعن حياطة -أي حماية- ملتهم التي بها عزوا في عاجلتهم، وبها يرجون الفوز في آجلتهم..»[(١)].

وبين في موضع آخر أن أمراء الطوائف في الأندلس كانوا مستعدين لتقديم أي تنازل مقابل بقاء مصالحهم، فقال: «والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم.. وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس»[(٢)].

وفي القرآن والسنة نماذجُ كثيرةٌ جدًّا ممن بدَّلوا نعمة الله كفرًا، فعذَّبهم الله بجحودهم، ومن ذلك:

*** فرعون وقومه:** ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ

---

(١) رسائل ابن حزم (٣/ ٤١).

(٢) رسائل ابن حزم (٢/ ١٩).

كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].



* **مملكة سبأ:** ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ۝١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

كانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم، حتى إن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف، لكثرته ونضجه واستوائه، كما قال قتادة وغيره(١).

وكانت من أخصب أرض اليمن وأثراها، وأعذبها وأكثرها جناناً، فكان أهلها في أطيب عيش وأرفعه وأهنأ حال وأرغده، في نهاية الخصب، وطيب الهواء، وصفاء الفضاء، وتدفق الماء، وقوة الشوكة واجتماع الكلمة.

«فبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد»(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٠٧)

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٠٤).



فخرب سدهم، وانهال عليهم تيار مائه، فاجتاح أراضيهم، وأتلف جناتهم وبساتينهم، وأفسد مزارعهم، ودمر بيوتهم ومنازلهم، وأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم، واضطر من نجا منهم للنزوح عنها، فأجلاهم عن ديارهم، ومزقهم شر ممزق.

وكان الماء هو سبب حضارتهم، فأصبح بإعراضهم سبب دمارهم.

* **أصحاب الجنة:** ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٧-٢٠] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣].

فجازاهم الله على سوء نيتهم وتغييرهم بأن أرسل على المزرعة عذاباً من عنده فأصبحت كالليل المظلم.

* **الأبرص والأقرع:** وذلك في القصة التي حكاها لنا رسولنا الكريم ﷺ عن ثلاثة من بني إسرائيل، «... **أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطاكَ اللهُ؟ فَقالَ: إِنَّما وَرِثْتُ هَذا المالَ كابِرًا عَنْ كابِرٍ، فَقالَ: إِنْ كُنْتَ كاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى ما كُنْتَ... ثم ذكر نحو ذلك مع الأقرع.**

ثم أتى الأعمى فقال له مثل ما قال للأبرص، فَقالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى، فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ ما شِئْتَ، وَدَعْ ما شِئْتَ، فَوَاللهِ لا أَجْهَدُكَ اليَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ للهِ، فَقالَ: أَمْسِكْ مالَكَ؛ فَإِنَّما ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ، وَسُخِطَ عَلَى صاحِبَيْكَ»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٤) ومسلم (٢٩٦٤).



* **بنو إسرائيل**: فإنهم حين أفسدوا في الأرض مرتين، وطغَوا وعلَوا علوًّا كبيرا، ولم يجدوا بينهم مَن ينهى عن هذا الفساد أو يقاوِمه، سلَّط الله عليهم أعداءً من الخارج، يجوسون خلال ديارهم، ويدمِّرون عليهم معابدهم، ويحرقون توراتهم، ويسومونهم سوء العذاب، ويتبِّرون ما علَوا تتبيرا، وكان وعد الله مفعولا.

وقد هدَّدهم بمثل هذه العقوبات القدرية إذا وقع منهم مثل ذلك الإفساد في المستقبل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، أي إن عُدتم إلى الطغيان والعلو والإفساد عُدنا عليكم بتسليط الأعداء.

النوع الثاني من التغيير: التغيير من السيئ إلى الحسن.

فما من أمة أو قوم غيروا حالهم السيئ إلى حال حسن بالإيمان بالله، وتوحيده، وإقامة شعائر دينه، وإصلاح ما بينهم، وإقامة العدل، إلا غير الله أحوالهم إلى أحسن حال وأرغد عيش، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

فأهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيمانا صادقا صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدرارا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخصب

عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب[1].



وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء، والنابت لهم من الأرض[2].

وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦] أي: كثيرًا.

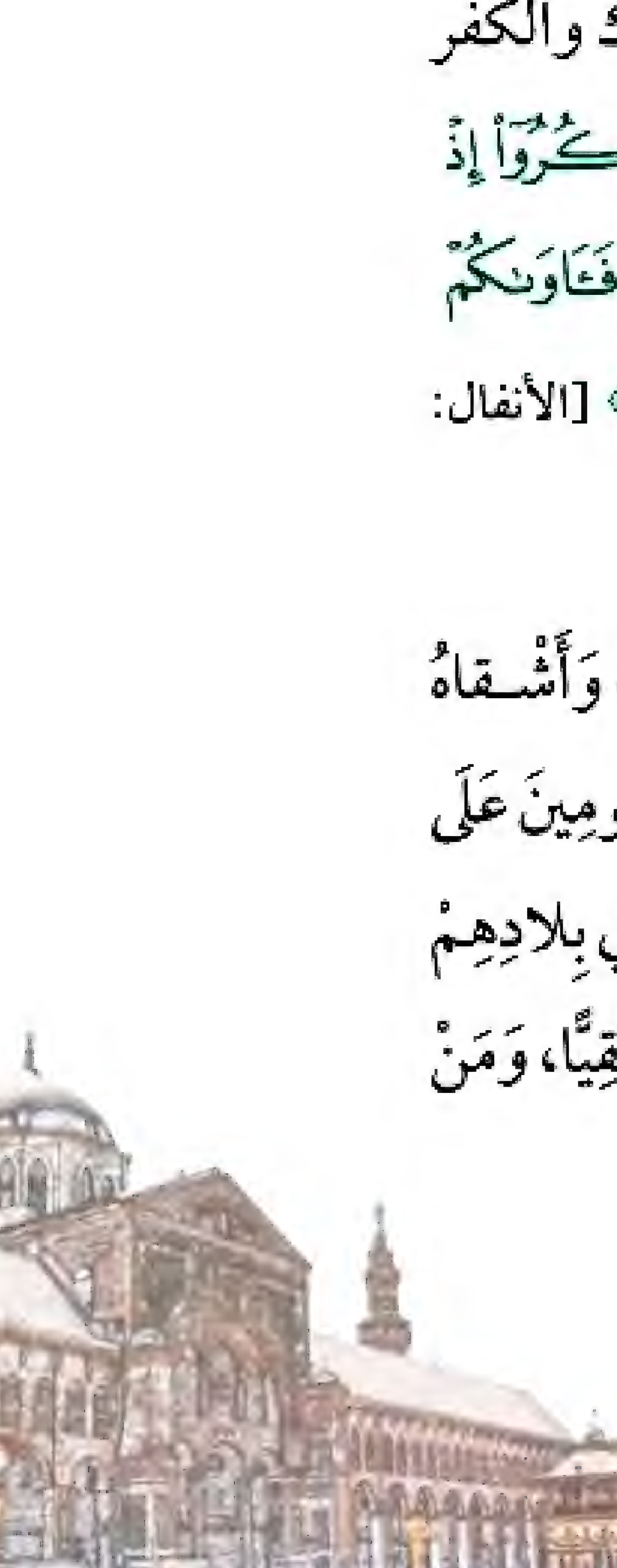
فالاستعلاء بالإسلام، والاعتزاز بالدين، هو الطريق الصحيح لنهضة الأمة وعزتها.

والصحابة رضي الله عنهم لما غيروا ما بأنفسهم من الشرك والكفر وسعوا إلى رضا الله تعالى، غيَّر الله لهم حالهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

قالَ قَتادَةُ: «كانَ هَذا الحَيُّ مِنَ العَرَبِ أَذَلَّ النّاسِ ذُلًا، وَأَشْقاهُ عَيْشًا، وَأَجْوَعَهُ بُطُونًا، وَأَعْراهُ جُلُودًا، وَأَبْيَنَهُ ضَلالًا، مَكْعُومِينَ عَلَى رَأْسِ حَجَرٍ، بَيْنَ الأَسَدَيْنِ فارِسَ والرُّومِ، وَلا واللهِ ما فِي بِلادِهِمْ يَوْمَئِذٍ مِنْ شَيْءٍ يُحْسَدُونَ عَلَيْهِ، مَنْ عاشَ مِنْهُمْ عاشَ شَقِيًّا، وَمَنْ

(١) تفسير السعدي (ص٢٩٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٨).



مـاتَ مِنْهُمْ رُدِّيَ فِي النّارِ، يُؤْكَلُـونَ وَلا يَأْكُلُونَ، واللهِ ما نَعْلَمُ قَبِيلا مِنْ حاضِرِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ كانُوا أَشَرَّ مَنْزِلًا مِنْهُمْ.



حَتَّى جاءَ اللهُ بِالإِسْلامِ فَمَكَّنَ بِهِ فِي البِلادِ، وَوَسَّعَ بِهِ فِي الرِّزْقِ، وَجَعَلَهُمْ بِهِ مُلُوكًا عَلَى رِقابِ النّاسِ، وَبِالإِسْلامِ أَعْطَى اللهُ ما رَأَيْتُمْ، فاشْكُرُوا للهِ نِعَمَهُ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ مُنْعِمٍ يُحِبُّ الشُّكْرَ، وَأَهْلُ الشُّكْرِ فِي مَزِيدٍ مِنَ اللهِ تَعالَى»(١).

قـال عمر بن الخطاب: «إِنّا كُنّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنا اللهُ بِالإِسْلامِ، فَمَهْما نَطْلُبُ العِزَّةَ بِغَيْرِ ما أَعَزَّنا اللهُ بِهِ أَذَلَّنا اللهُ»(٢).

وبمثـل هذه الحقائق تسـقط دعاوى العروبيـين الجهلة أدعياء القوميـة العربيـة الذين زعموا أن العـز والتمكين للعرب مصدره عروبتهم وقوميتهم.

لقـد قـام النبـي ﷺ بتغيـير في العقائـد والأفـكار والتصورات والأخلاق، فتغير ما حوله، فتغيرت المدينة، ثم مكة، ثم الجزيرة، ثم انتقل التغيير إلى بلاد فارس والروم.

فنِعـم الله «عَلَى الأَقْوامِ والأُمَـمِ مَنُوطَةٌ ابْتِـداءً وَدَوامًا بِأَخْلاقٍ، وَصِفاتٍ، وَعَقائِدَ، وَعَوائِدَ، وَأَعْمالٍ تَقْتَضِيها، فَما دامَتْ هَذِهِ الشُّئُونُ لاصِقَةً بِأَنْفُسِهِمْ مُتَمَكِّنَةً مِنْها كانَتْ تِلْكَ النِّعَمُ ثابِتَةً بِثَباتِها، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ الكَرِيمُ لِيَنْتَزِعَها مِنْهُمُ انْتِزاعًا بِغَيْرِ ظُلْمٍ مِنْهُمْ وَلا ذَنْبٍ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠)

(٢) رواه الحاكم في المسـتدرك (٢٠٧)، وصححه على شـرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١/ ١١٨).



فَـإِذا هُمْ غَيَّرُوا ما بِأَنْفُسِـهِمْ مِـنْ تِلْكَ العَقائِـدِ والأَخْلاقِ، وَما يَتَرَتَّـبُ عَلَيْهـا مِنْ مَحاسِـنِ الأَعْـمالِ، غَـيَّرَ اللهُ عِنْدَئِذٍ ما بِأَنْفُسِـهِمْ، وَسَـلَبَ نِعْمَتَهُ مِنْهُمْ، فَصـارَ الغَنِيُّ فَقِيرًا، والعَزِيـزُ ذَلِيلًا، والقَوِيُّ ضَعِيفًا، هَذا هُوَ الأَصْلُ المُطَّرِدُ فِي الأَقْوامِ والأُمَمِ»(١).



ضرورة التغيير اليوم:

مثلـما كان العـالم محتاجـاً للتغـير إبّـان مبعـث نبينا ﷺ، فكذلـك هو اليوم محتـاج للتغيير بمثل ما حصل بـه التغيير في أول الإسلام، وذلك بالعودة الجادة لما جاء به عليه الصلاة والسلام من ربه.

لقد وقع العالم الإسلامي من أقصاه إلى أدناه في انكسار وتراجع، وتفشـت في أوساطه أسباب الوهن والخلل، حتى شمل مساحات واسـعة مـن البنـاء العقـدي والفكـري والسـلوكي والاجتماعـي والاقتصادي.

لقد غيَّر المسـلمون كثيراً، فكانت السنة الحتمية لهذا التغيير أن يغير الله حالهم، فذلت الأمة بعد عز، وجهلت بعد علم، وضعفت بعد قوة، وأصبحت في ذيل القافلة البشرية.

ففي العقائد: انتشرت عبادة القبور، وشد الرحال إليها، ودعاء الأمـوات، وزيارة الأضرحة، وصرفت العبادة في كثير من صورها إلى غير الله تبارك وتعالى.

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٣٣).



وعلى مستوى الولاء والبراء: انتشرت جاهلية القوميات والعصبيات، وعقد الولاء والبراء على أساس الجنس واللغة والدم.

وفي الشريعة: نحي شرع الله جانباً، وحكمت القوانين الوضعية في شؤون الحياة، وحلت محل شرع الله في كثير من بلاد المسلمين.

وعلى مستوى الدولة والسياسة: قامت نظم حكم علمانية، ونظم وضعية، وغاب العدل، وانتشر الظلم والفساد.

وعلى مستوى التعليم: غيَّر أهل الإفساد في المناهج وحرفوا فيها، وطمسوا بعضها، ودسوا فيها الباطل والإلحاد وتأليه الطبيعة، وتكريس الفصل بين الدين والحياة.

وعلى مستوى الفكر: جرى تشويه الإسلام، وتزيين الباطل.

وعلى مستوى الاجتماع: تغيرت الفطر، وأصبحت المرأة في كثير من المجتمعات كالرجل.

انْظُـرْ بِحَقِّـكَ في أَمْـرِ الدَّواوِينِ
فالـكلُّ قد غيَّرُوا وضْـعَ القَوانينِ
لَمْ يَبْـقَ شَيءٌ عَـلَى ما كُنْـتَ تَعْهَدُهُ
إلاَّ تَغَـيَّرَ مِـنْ عـالٍ إلَـى دُونِ

وبعض الناس يرى ما فيه الأمة من ضعف وتخلُّف فيحزن لذلك، لكن المحزن أنه لا يسعى للتغيير والإصلاح، بل ينتظر معجزة من السماء، أو مجيء المهدي المنتظر! ولا يرى لنفسه أي دور في التغيير، وهذا خطأ كبير، بل أدلة القرآن والسنة تدُلُّ على أن للإنسان دورًا كبيرًا في التغيير.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تمشي على اليبَس



والمجالات التي تحتاج إلى تغيير كثيرة: فالتغيير من هذه الأحوال إلى الحال الصحيحة يشمل مختلف أركان الحياة؛ فيدخل على العقيدة والتوحيد، والشرائع، والعبادات والمعاملات، والعادات، والتقاليد، والآداب والأخلاق، والسياسة والاجتماع، والاقتصاد والمال، والصناعة والتكنولوجيا، والتعليم وغير ذلك.

نحن نريد تغييراً علمياً، تقنياً، تربوياً، أخلاقياً، وفق منهاج الله وبضوابط شرع الله.

كما فعل عمر بن عبد العزيز لما استلم الخلافة، وكان الظلم والفساد قد انتشر، فأحدث تغييرا كان مبناه على العدل: فرد المظالم لأهلها، وبدأ بنفسه، ثم أهله وعشيرته، وطبق الشرع على الجميع، وعين الأخيار من أهل الكفاءة والأمانة والعلم، وأحيا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحرص على سلامة معتقد الأمة الصحيح، وحارب المعتقدات الفاسدة، واهتم بالعلم والعلماء غاية الاهتمام.

فماذا كانت النتيجة؟

عم الرخاء في أرجاء البلاد، وفاض المال حتى لم يجد الناس من يقبله.

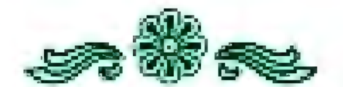
قال عمر بن أسيد: والله ما مات عمر حتى جعل الرجل يأتينا



بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح حتى يرجع بماله كله، قد أغنى عمر الناس[١].

وقـد أمر عمر بن عبد العزيز من ينادي في الناس كل يوم: أين المسـاكين؟ أين الغارمون؟ أين الناكحون الذين يريدون الزواج؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء[٢].

والحاصل: أن تغيير حال المجتمعات والأمم سـنة إلهية، متوقفة على تغيير الشعوب لأحوالها وسلوكها.





(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣١).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٢٠٠).



سنة إهلاك الظالمين

إن الظلم مرتعه وخيم، وعاقبته سيئة، وهو منبع الرذائل، ومصدر الشرور، يأكل الحسنات، ويمحق البركات، ويجلب الويلات، ويورث العداوات، ومتى فشا وشاع في أمة أهلكها، ومتى حل في قريةٍ دمّرها، ولو بغى جبل على جبل لدُكّ الباغي منهما، فالظلم شنار، ومجلبة للعار، وخراب للديار.

نزه الله تعالى نفسه عنه، فقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

وقال رسول الله ﷺ: **قال الله تبارك وتعالى: (يا عِبادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظالَمُوا)**[1].

وكان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه.

وأخبر تعالى أنه لا يحب الظالمين: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٢٦].

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رضي الله عنه.





وتوعّد الظالمين بالعذاب والنكال الشديد: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].

وهددهم بسوء العاقبة وشؤم المنقلب: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وطردهم وأبعدهم عن رحمته: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، فلكل ظالم حظ من هذه اللعنة بقدر مظلمته، فليستقل أو ليستكثر.

والظالم لا نصيب له من الفلاح: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، فهو محروم من الفلاح في الدنيا والآخرة، ومصروف عن الهداية في أمور دينه ودنياه.

والظلم ظلمات: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

ويكفي في ذم الظلم قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «بئس الزاد إلى المعاد: العدوان على العباد»[٢].

قال سفيان الثوري رحمه الله: «إنك أن تلقى الله عز وجل بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه، أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد»[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) السير (١٠/ ٤١).

(٣) التذكرة للقرطبي صـ٣٦٠.



«فالمَعْصِيَةُ فِيهِ أَشَدّ مِنْ غَيْرِها، لِأَنَّهُ لا يَقَعُ غالِبًا إِلّا بِالضَّعِيفِ الَّذِي لا يَقْدِرُ عَلَى الِانْتِصارِ»[1].

«وقد تطابقت الملل والنحل على تقبيح الظلم»[2].

وكما أن العدل مأمور به مطلقاً في جميع الأحوال، ومع جميع الناس من جميع الملل والنحل، **فكذا الظلم محرم مطلقاً** في جميع الأحوال، ومع جميع الناس من أي ملة ودين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

فهذه الآية جامعة لأصول التكليف كلها، فما من عدل وفضل واستقامة إلا وهذه الآية تأمر به، وما من ظلم وعصيان وفساد إلا وهي تنهى عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا كان العدل أمراً واجباً في كل شيء، وعلى كل أحد، والظلم محرماً في كل شيء، ولكل أحد، فلا يحلُّ ظلمُ أحدٍ أصلاً، سواء كان مسلماً أو كافراً أو كان ظالماً»[3].

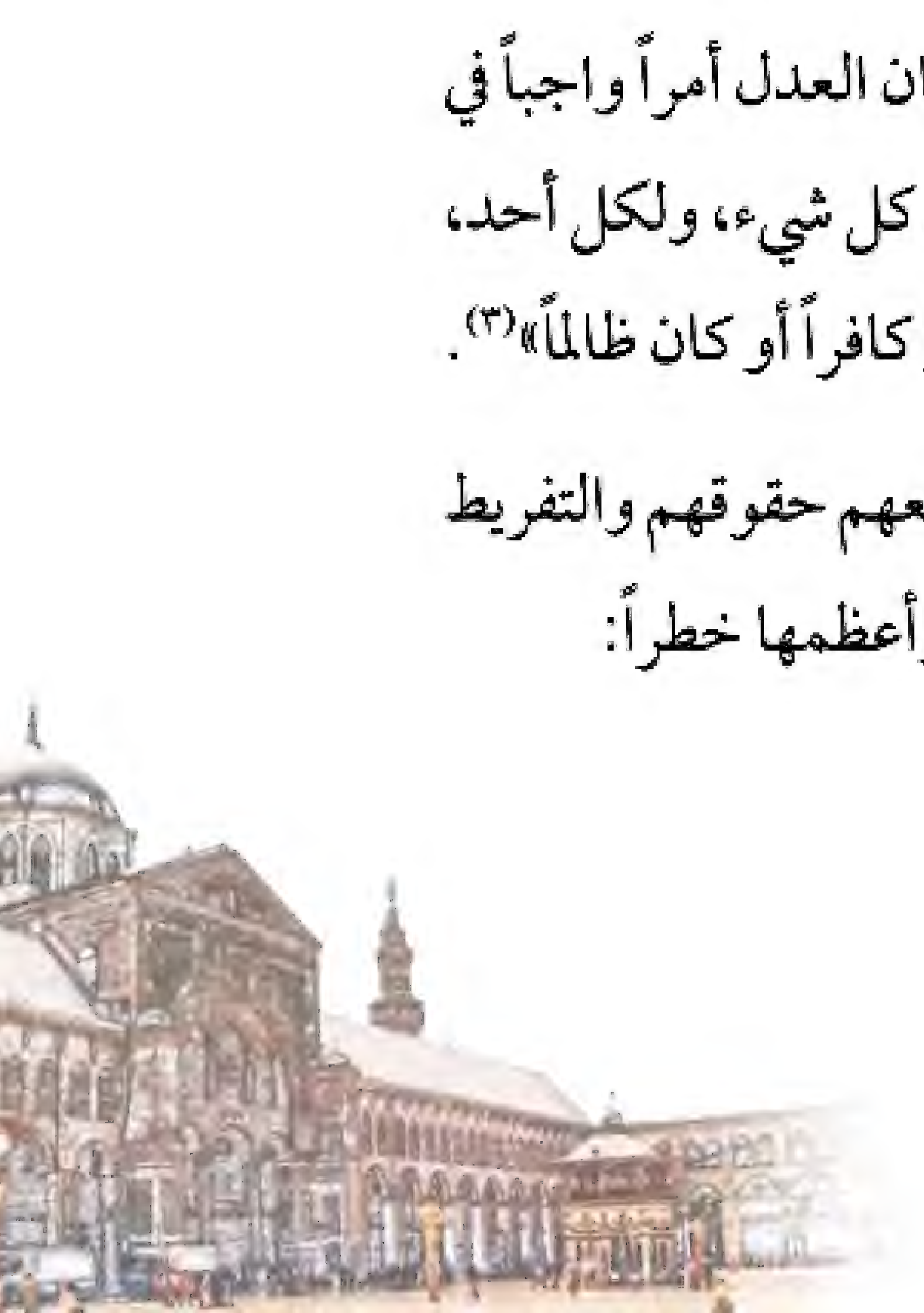
وإن لظلم العباد ألواناً وصوراً كثيرة، كمنعهم حقوقهم والتفريط فيها، أو فعل ما يضر بهم، ومن أقبح صوره وأعظمها خطراً:

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٥/ ١٠٠).

(٢) فيض القدير (٢/ ٣٦٦).

(٣) الفتاوى (١٨/ ١٦٦).



* **البغيُ في الأرض بغير الحق**، والاستطالة على الخلق، في دينهم أو أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم أو عقولهم، بمختلف سبل العدوان.

* **التعدي على النفوس** بقتل أو ضرب أو سجن أو تعذيب... إلخ.

عن هِشام بْن حَكِيم بْنِ حِزامٍ قال: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيا**»[1].

* **الاعتداء على أموال المعصومين** سواء بسرقة أو إتلاف أو بالتحايل والخداع، أو عن طريق الرشوة، أو الربا، أو غير ذلك من الوسائل المحرمة.

* **ومن أشد أنواع الظلم: تسلط الظلمة على أقوامهم** يسومونهم سوء العذاب، كما فعل فرعون مع بني إسرائيل، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص: ٤].

وكما يفعل بعض الفراعنة في هذا العصر، يحاصر شعبه المستضعف بالدبابات، ويقطع عنهم الغذاء والدواء والكهرباء، فأي ظلم أعظم من هذا؟.

مصارع الظالمين وعواقب المفسدين:

إن نهاية الظالمين أليمة، وإن المتأمل في سير الظالمين ليرى في

---

(١) رواه مسلم (٢٦١٣).



مصارعهم أعظم العظة والعبرة، ويعلم في أي واد يهلكون وأي خزي يجللهم في الدنيا قبل الآخرة.

وقد يعجل الله للظالم العقوبة في الدنيا، مع ما يُدخر له في الآخرة؛ وذلك لشناعة الظلم وكثرة أضراره؛ فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضِي الله عَنْهُ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِهِ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيا -مَعَ ما يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ-: مِنْ البَغْيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»[1]، والبغي هو الظلم.

فعلى الباغي تدور الدوائر، فإذا هو يبوء بالخزي ويتجرّع الهوان وينقلب خاسئاً، لم يبلغ ما أراد، ولم يظفر بها رجا.

وقد اقتضت سنة الله الكونية هلاك الظالمين ومحق المعتدين، وقطع دابر المفسدين، سواء أكان الظالم فردًا أم جماعة أم أمة من الأمم.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «الغالب أن الظالم تُعجل له العقوبة في الدنيا، وإن أُمهِل، فإن الله يملي له حتى إذا أخذه لم يفلته.

فجانب الظلم لا تسلُكْ مسالِكَه
عواقبُ الظلمِ تُخشى وَهيَ تُنتظَرُ
وكلُّ نفسٍ ستُجزى بالذي عملتْ
وليس للخلقِ من ديّانِهم وطرُ[2]

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٢) والترمذي (٢٥١١) وابن ماجه (٤٢١١)، وصححه الألباني.
(٢) شرح حديث «لبيك» (ص١٠٨-١٠٩) بتصرف.



وإن من أكبر أولئك الطغاة الظلمة الذين عجل الله لهم العذاب وأخبرنا عن مصارعهم: **فرعون** الذي بغى واستطال على بني إسرائيل، وبلغ به السفه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩]، وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

فماذا كانت عاقبة بغي فرعون؟! قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات: ٢٥]؟!

وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القص: ٤٠].

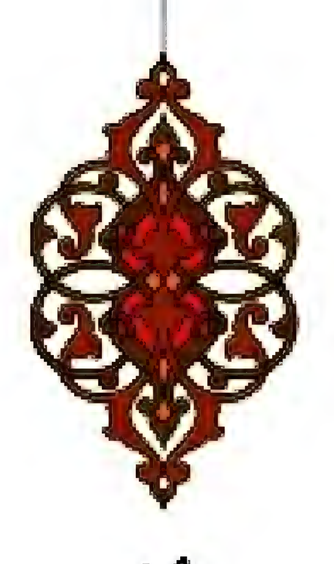
ومن أولئك الظلمة: قارون الذي بغى على قومه حين آتاه الله من الكنوز ما تنوء بثقله العصبة أولو القوة؟! كما بغى عليهم بجبروت العلم، فماذا كانت نهايته؟

قال تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

وأبرهة صاحب الفيل: الذي أراد هدم البيت حجراً حجرا، فأرسل الله عليه الطير الأبابيل.

وإلى أي منتهى كان أمر **أبي جهل** فرعون هذه الأمة **وأمية بن خلف** رأس الضلال والإضلال، والملأ من قومهما الذين بغوا في الأرض فاشتدت وطأتهم على المستضعفين من المؤمنين الأولين، فوقفوا لهم بالمرصاد، وساموهم سوء العذاب وأليم النكال؟!

وفي غزوة بدر خرجوا يلفهم الغرور، متطاولين على الله، فأسفرت المعركة عن هلاك الظالمين، وقطع دابرهم أجمعين، وانتهت بالنصر والتمكين للمؤمنين الصابرين؟!



فالجزاء من جنس العمل:

* ولمّا نُكب البرامكة في خلافة الرشيد، **وحُبس يحيى البرمكي وولده**، قال له بعض ولده: «يا أبت! بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذا الحال؟!

فقال له: «يا بني دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون، ولم يغفل الله عنها»[١].

* **وكان جَيْشُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ صَمْصامَةَ أميراً على دمشق**[٢]، وَكانَ ظلوماً مُتجبراً سَفّاكاً للدماء، مُصادِراً، خبيثَ العقيدَة، عَجَّ الخلقُ فِيْهِ إِلَى اللهِ، وكَثُرَ ابتهال أهل دمشق إلى اللهِّ فِي هلاكه حَتَّى هلك بِالجُذام.

وابتُلِيَ جَيْشٌ بِما لاَ مَزِيْدَ عَلَيْهِ، حَتَّى أَلْقَى ما فِي بَطْنِهِ وَكانَ يَقُوْلُ لأَصْحابِهِ: اقْتُلُونِي، وَيْلَكُم! أَرِيحُونِي مِنَ الحَياة[٣].

* **وكان ابن الزيات وزيراً للمعتصم**، وكان شديد القسوة صعب العريكة، لا يرقّ لأحد ولا يرحم، وقَّع يوماً على رقعة

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٢٠٥).

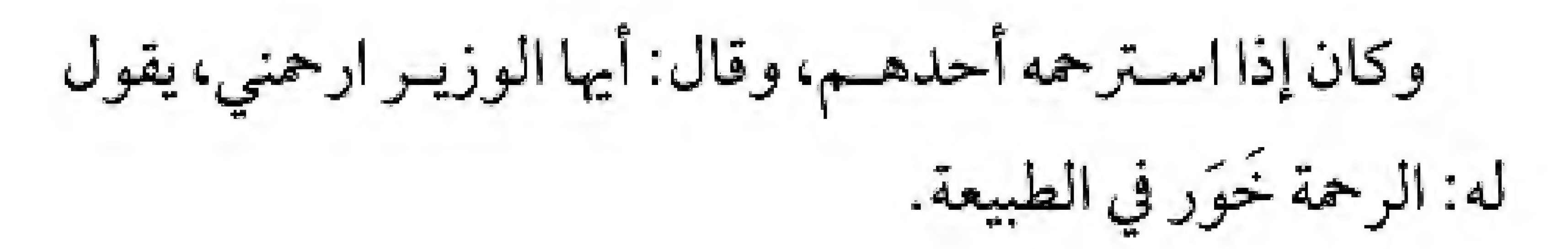
(٢) وذلك في سنة (٣٦٣) هـ.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٤)، تاريخ الإسلام (٢٧/ ١٤٨).

رجـل توسـل إليه بقرب الجـوار منـه، فكتب: الجـوار للحيطان، والتعطف للنسوان.



واتخـذ في أيـام وزارتـه تنـوراً من حديـد، وأطراف مسـاميره المحددة إلى داخل، وهي قائمة مثل رؤوس المَسـالّ، وكان يعذب فيه الناس، فكيفـما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسـامير في جسـمه، فيجدون لذلك أشـد الألم، ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة.



وكان إذا اسـترحمه أحدهـم، وقال: أيها الوزيـر ارحمني، يقول له: الرحمة خَوَر في الطبيعة.

فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور، وقيده بخمسـة عشر رطـلاً من الحديد، فقال: يا أمـير المؤمنين ارحمني، فقال له: الرحمة خور في الطبيعة -كما كان يقول للناس-[1].

وفي التاريخ المعاصر عبر في مصارع الظالمين:

فكيـف كانت نهاية **هتلر النازي، وموسـوليني الفاشي، وشـاه إيران، وطاغية الصرب ميليسوفتش** الذي عاش فساداً في البوسنة والهرسـك؟ وغيرهم كثير، لقد طغـوا وتجبروا وظلموا ثم أذاقهم الله تعـالى الـذل في الدنيا. لقد زالوا كأن لم يكونـوا، ويا ويلهـم من مظالم تنتظرهم.

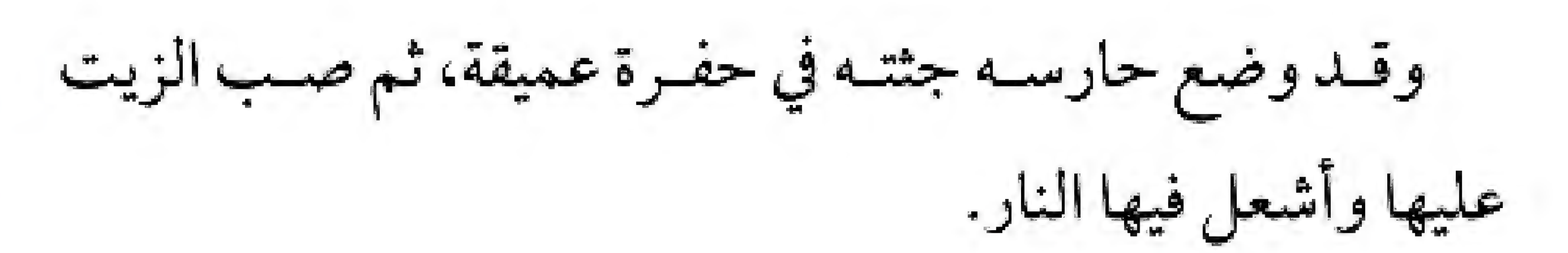
فهـذا هتلـر: الذي كان رئيسـاً لأكبر قـوة في العـالم، فعاث في

---

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٩٥).

الأرض الفساد، وقُتل بسببه ملايين البشر، كانت نهايته بأن قتل نفسه برصاصة أطلقها من مسدسه في فمه.





وقد وضع حارسه جثته في حفرة عميقة، ثم صب الزيت عليها وأشعل فيها النار.

وهذا كمال أتاتورك: الذي ألغى الخلافة العثمانية، ومنع أعياد الفطر، ومنع الحج، وجعل يوم الأحد عطلة رسمية للمسلمين، وأصدر أمراً بتحويل مسجد أيا صوفيا إلى متحف، وكان سكيراً عربيداً ماجناً فاحشاً.

كانت نهايته أن ابتلاه الله بنمل صغير أحمر لا يُرى بالعين!!وأصيب بتليف في الكبد، فذاق مُرَّ العذاب ثلاث سنين، حتى قبضت روحه الملائكةُ ظالماً جاحداً ملحداً.

وبعض ظلمة هذا العصر من الذين تسلطوا على عباد الله المسلمين، فساموهم سوء العذاب، حتى ضُرب به المثل في القسوة والظلم، كان يقول لمن يعذبهم: لو نزل ربكم من السماء لأسجننه معكم في الحديد-والعياذ بالله-. فكيف كانت نهايته؟

لقد هلك في حادث شنيع، اصطدمت سيارة هذا الطاغية، بسيارة محملة بالحديد، فدخلت أسياخ الحديد في رقبته وجسده، وجعل يخور كما يخور الثور، وما استطاعوا أن يخلصوا جسده من أسياخ الحديد التي نشبت به إلا بتقطيع لحمه وتمزيقه، كما كان يمزق ضحاياه الأبرياء المغلوبين.



وهذا فرعون العصر (شارون): الذي تكبر على الله تعالى، وقتل الأبرياء واغتصب الأرضَ، وشرَّد الآمنين، وعاث في الأرض فساداً، ولكن ما هي إلا أيام وشهور حتى صبَّ عليه ربُّ العزة والجلال العذاب صباً، فلا هو مع الأموات ولا هو مع الأحياء، وصار ملعوناً حتى عند بني جلدته ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وهذا كله في عذاب الدنيا، أما عذاب الآخرة فمرصود لهم عند ربهم: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، نسأل الله أن يعافينا من أن نظلم أو نُظلم.

عقاب الأمم الظالمة:

إن عقاب الله للظالمين لا يقتصر على الأفراد، فسنة الله في الظالمين جارية على الأمم الظالمة أيضا، بل هي مطردة في هذه الأمم الجائرة لا تتخلف؛ «فالأُمَمُ والشُّعُوبُ الباغِيَةُ الظّالِمَةُ لا بُدَّ أَنْ يَزُولَ سُلْطانُها، وَتَدُولَ دَوْلَتُها»[1].

بخلاف الأفراد، فمنهم من يؤخره الله ليوم القيامة، ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

(١) تفسير المنار (٩/ ٣٧٩).



والأمم التي أهلكها الله تعالى بسبب ظلمها وبغيها عديدة، كما قال سبحانه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وحكى الله عن مصارع الأمم الظالمة الطاغية كقوم عاد، وثمود، وفرعون، فقال: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ (١٠) ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ (١١) فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر: ٩-١٤].

وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وسنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢].

فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ أي إن عذاب الله ليس مقتصرا على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة، فكل

من شــارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم، فلا بد أن يشــاركهم في ذلــك الأخذ الأليم الشــديد، فالآية تحذير من وخامة الظلم، فلا يغتر الظالمون بالإمهال.

وقد عاقب الله الأمم الظالمة بأنواع من العقوبات:

فقــال تعــالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وعاقــب الله عادا بالريح لما اســتكبروا وطغوا وقالوا من أشــد منــا قــوة، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: ٦-٧].

وأرسل على أهل سبأ سيل العرم، ومزق ملكهم وأزال نعمتهم وجعلهم عــبرة للمعتبرين، فقال الله تعــالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦]، وقــال: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩].

بقاء الدولة العادلة وإن كانت كافرة، وزوال الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة:

قــال تعــالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، والمراد من الظلم في هذه الآية: الشرك.



والمعنى -على أحد وجهي التفسير-: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد.

قال شيخ الإسلام: «عاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ، وَعاقِبَةُ العَدْلِ كَرِيمَةٌ، والله يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ العادِلَةَ وَإِنْ كانَتْ كافِرَةً، وَلا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كانَتْ مُؤْمِنَةً»[١].

فالدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية، وتظالم الناس فيما بينهم، حل بها العقاب.

قال القرطبي: «أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط...»[٢].

ومن آثار الظلم: خراب البلاد.

ومن آثار الظلم الوخيمة: خراب البلاد اقتصادياً وعمرانياً، ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٣).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ١١٤).



﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾ [النمل: ٥٠-٥٢].

وفي ذلك إشارة إلى أن للظلم أثرا في خراب بلادهم، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال: أجد في كتاب الله أن الظلم يخرب البيوت، وتلا: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢][1].

إمهال لا إهمال:

قد نرى بعض الظالمين يتمادون في ظلمهم، فلماذا يتأخر عقابهم؟

قد يتأخر عقابهم لأمور:

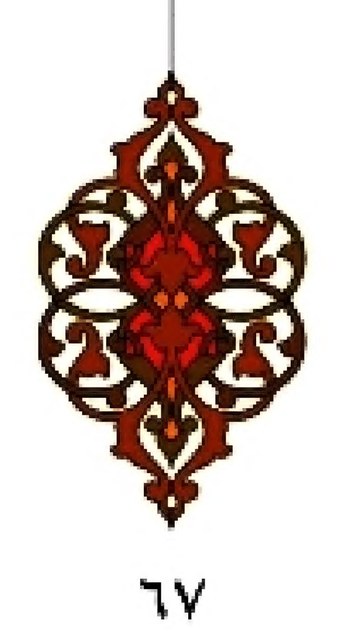
* **لأن الله سبحانه حليم،** فحلمه واسع يسع الناس جميعاً، فلا يعجل العقوبة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١] فالله جلّ جلاله يحلم ويستر ويُنْظر إلى أجل مسمى، ولا يعاجل بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

* **ولأن هلاك الأمم الظالمة له أجل محدود يختلف باختلاف أحوالها وأحوال أعدائها وفق حكمة الله البالغة:** ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

---

(١) المجالسة وجواهر العلم (٥/ ٢٢٣)





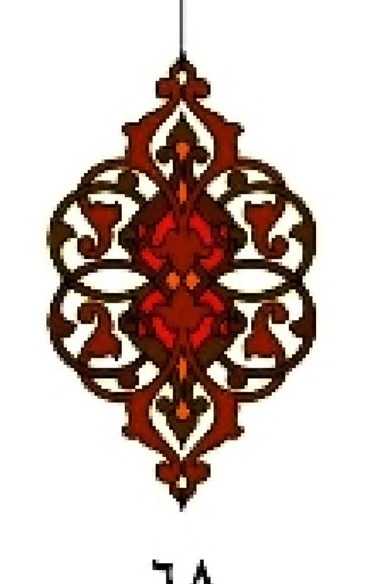
فهـلاك الظالمين وإن كان شـيئاً مؤكـداً، إلا أن وقت حلوله بهم مجهـول بالنسـبة إلينا، أي إننا نعلم يقينـاً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسـبب ظلمها حسـب سـنة الله تعـالى في الأمـم الظالمـة، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدده بالأيام ولا بالسنين، وهو معلوم محدد عند الله تعالى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

* **وقـد يكـون عـدم تعجيـل عقوبتـه لاسـتدراجه، ثـم أخذه أخـذا أليمًا: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذا أَخَـذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

* **أو ليستحكم العذاب على الظالم يوم القيامة،** قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

وهذا وعيد شـديد للظالمين، وتسلية للمظلومين، فإن الله يملي للظـالم ويمهله ليزداد إثما، وهو يؤخره لِيَوْمٍ لا تطرف فيه الأبصار من شدة ما ترى من الأهوال، وما يزعجها من القلاقل.

وتـرى الظلمة في ذلـك اليـوم ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي: مسرعين لإجابة الداعي، رافعي رُءُوسـهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي: فارغـة؛ لأن قلوبهم قد صعدت إلى حناجرهم.



* **أو لعلم الله بصلاح هذا الظالم مستقبلاً وتوبته توبة نصوحاً وتحلله ممن ظلمه.**

* **أو لاختبار قوة الإيمان واليقين؛** فمن يعلم أن هناك دارا يُجازى فيها الظالم على ظلمه، وأنه لن يفلت فيها من عذاب الله؛ استراحت نفسه ولو لم ير عقاب الظالم أمام عينيه.

بل إن في عدم الانتقام من بعض الظالمين في الدنيا دليلا على وجود الآخرة.

عن أبي عمرو بن العلاء قال: كان رجل من العرب في الجاهلية إذا رأى رجلا يظلم ويعتدي يقول: فلان لا يموت سويّاً، فيرون ذلك.

حتى مات رجل ممن قال ذلك فيه، فقيل له: مات فلان سويّاً.

فلم يقبل حتى تتابعت الأخبار.

فقال: إن كنتم صادقين، فإن لكم داراً سوى هذه تجازون فيها[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ القِيامَةِ حَتَّى يُقادَ لِلشَّاةِ الجَلْحاءِ مِنْ الشَّاةِ القَرْناءِ**»[2].

فإذا كان هذا حال العجماوات فيما بينها، فكيف الحال فيما يكون بين العقلاء، هل يضيع منه شيء؟.

---

(١) عيون الأخبار (١/ ١٤٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٢).





فـلا يغرُّ الظَلمةَ إمهـالُ الله لهم؛ فالملك كله لله يؤتيه من يشـاء وينزعـه ممن يشـاء، وإن الله يمهـل ولا يهمل، فبينا ابـن آدم الظالم في عـزه، وسـلطانه، غير آبـهٍ بحـق الله، وحق عبـاده، إذ حلت به المثلات، وقرعته القوارع، فأوخذ بظلمه، وعوقب على جرمه.





سنن الله في خلقه

سُنَنُ اللهِ في خَلقِه، هي أحوالُ تدبيرِه شئون مُلكِه، وتَسييرِه أحوالَ عبادِه، بمقتضى علمِه وحكمتِه. والعلمُ بأحوالِ الأممِ، وما أصابَه أهلُ الإيمانِ من الخيرِ والبركةِ والنَّصرِ بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رسلِه، ومَا حَلَّ بأهلِ الكفرانِ من النِّقمةِ والشِّدةِ والبأسِ بمَعصيةِ اللهِ وخلافِ رُسُلِه، مِنْ أنفعِ العلومِ، وأرشدِها لسدادِ الرأْيِ، والحكمةِ في القولِ والفعلِ؛ فإنَّ العاقلَ يَحذو حَذوَ الراشدين، ويسلُكُ طريقَ المهتدين، ويقفُو أثَرَ الصالحين، ويستعيذُ باللهِ من مَسالكِ الضالِّين، ومَصيرِ المُسرفين.

وفي هذه الرسالةِ نتعرَّفُ على سُنَنِ اللهِ في خلقِه؛ فمنهم من يَحفظُه بحفظِه، ومنهم مَن يتولاه بنصرِه وتأييدِه، ومنهم مَن يستخلفه لإقامةِ شرعِه، ومنهم مَن يستبدلُه لتولِّيه وإعراضِه، ومنهُم من يستدرجُه لإهلاكِه، وله سُبحانَه في خلقه شُئونٌ، قائمةٌ على كمالِ علمِه، وحكمتِه البالغةِ.

نسألُ اللهَ الهدايةَ في القولِ والفعلِ، وأن ينفعَنا وإخوانَنا المسلمين بما تقولُ أفواهُنا، وتكتبُ أيدِينا، إنَّهُ سميعٌ قَريبٌ.



المملكة العربية السعودية
الخبر - هـ: ٨٦٥٥٣٥٥
جدة - هـ: ٦٩٢٩٢٤٢
ص.ب ١٢٦٢٧١ جدة ٢١٣٥٢

ISBN: 9786038047811
9 786038 047811

خصم خاص للتوزيع الخيري: ٠٥٠٤٤٤٦٤٣٢